توبة شاعر تركي

بقلم : د . محمد حرب*

تولت الدولة العثمانية باسم الإسلام، **رافعة لرايته، داخل أوروبا، مرورا ببلغاريا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ثم النمسا، وأمام أسوارها توقف السيل العثماني الجارف الهادر، ووجد العثمانيون أنفسهم لأول مرة - لا يستطيعون التقدم والفتح ومواصلة المد الإسلامي، الذي خرج من جزيرة العرب ووصل إلى أوروبا الغربية مرورا بشمال إفريقيا، والذي توقف عند حدود فرنسا.**

ساعتها أدرك العثمانيون أنهم تأخروا، وبحثوا في الأسباب، من عسكرية وسياسية وحضارية وفكرية .

وانخدع الشباب العثماني بفكر الغرب الذي كان يسعى لفتح القلعة من الداخل، ودخلت الفلسفات الغربية إلى البلاد، ثم اعتنقها شباب أصبحوا القادة فيما بعد . ومن هؤلاء الشاعر والمفكر العثماني رضا توفيق (١٨٦٨ - ١٩٤٩م) .

درس رضا توفيق في مدرسة اليانس اليهودية في إستانبول ثم في المدارس الأرمنية في إزمير ثم في مدرسة غالاطة سراي التي خرجت زعماء تركيا من العلمانيين، وحتى اليوم .

كان رضا توفيق عبقريا، أجاد اللغات العربية والفارسية والفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية واليونانية والأرمنية .

انضم رضا توفيق إلى جمعية الاتحاد والترقي عام ١٩٠٧م، وكان من أبرز - إن لم يكن أبرز - الخطباء الذين دافعوا عن فكر الاتحاد والترقي، وهو فكر اتسم بالعلمانية والمطالبة بحرية رأوها . وعمل مدرسا للفلسفة في جامعة إستانبول، وفي عهد سيطرة الاتحاد والترقي كان وزيرا للمعارف (١٩١٨م) . وعرف في الأدب التركي العثماني باسم الفيلسوف رضا . ومن أعماله دروس في الفلسفة (١٩١٤م) - القاموس الفلسفي المفصل في جزأين (١٩١٤-١٩٦م)، وكتابه المشهور عبد الحق حامد وملاحظات فلسفية (١٩١٨م) ترجمة رباعيات الخيام (١٩٤٥)، توفيق فكرت شاعر تركي إلحادي مهاجم للتاريخ الإسلامي وللقيم الإسلامية (عام ١٩٤٠م) .

ومن أشعاره في وصف الدولة العثمانية - على الأغلب :

تفرق أهل الدار، واضطرب البيت
انهار الدار وتحول إلى خرابة، إلى قبر
لم تعد الورود تبتسم فقد عاودها
الذبول لم تعد البلابل تغني في الرياض

وكان معاديا للمعاني الإسلامية الجميلة التي حملها وحمل لواءها السلطان عبدالحميد الثاني، وكان مخططا فكريا لكيفية تقويض دعائم الحكم العثماني على اعتبار إسلاميته، وتأثر برضا توفيق أعضاء الاتحاد والترقي خاصة الضباط .

وعندما نجحت جمعية الاتحاد والترقي التي كان رضا توفيق عمادها الفكري والفلسفي، ورأى تطبيقات الجمعية عندما تولت السلطة، أدرك أنه أخطأ خطأ جسيما باتباعه الجمعية، وباشتراكه في إسقاط رأس الدولة المسلم السلطان عبد الحميد الثاني، فتاب وأناب، وقال قصيدة انتشرت وذاعت، وهي :

السلطان عبدالحميد الثاني
عندما يذكر التاريخ اسمك أيها السلطان العظيم
يكون الحق معك وفي جانبك
افترينا عليك دون حياء
وأنت أعظم السياسيين في عصرنا
قلنا : إن السلطان عبدالحميد ظالم
قلنا : إن السلطان عبدالحميد مجنون
قلنا : لا بد من الثورة على السلطان
وصدقنا كل ما أوعز به الشيطان إلينا
وتسببنا عندما ثرنا عليه، في إيقاظ الفتنة
وكانت نائمة
لم تكن أنت المجنون يا مولاي، بل كنا نحن، ولم نكن ندري
لم نكن نحن المجانين فحسب، بل كنا، قد عدمنا الأخلاق
ذلك لأننا قد تنكرنا بعزلك أيها السلطان العظيم لقبلة الأجداد. ■

* جامعة البحرين